Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 13-14:2-3-4-1 (1978-1979)

ما هی العبادة

الاستاذ محمد جعفر شاه الفلواروی
کراتشی

العبادة فی الاصل هو کون الشیٔ عبدا والعبد قد یکون حقیقة کما ان الملائکة والشیاطین والجن والانس کلهم عباد الله حقیقة وفطرة، الا ان الملائکة عباد مکرمون لایعصون الله، وهم یفعلون ما یؤمرون والشیاطین عباد الله العصاة، المستکبرون الکافرون، واما الجن فمنهم الصالحون و منهم دون ذلك و منهم المسلمون و منهم القاسطون(۱) و من اعجب الخلائق بنو آدم — منهم عباد اکرم من الملائکة و منهم من هو أعصی من الشیطان — و من البشر عباد الله حقیقة، و عباد الناس مجازا — وهم أساری الی ان یعتقوا — و من الاساری من یلبث طوعا مرة والاخری کرها — و منهم من یعیش فی الأسر منشطا و منهم من یلبث مسخطا — ثم العباد — حقیقة کانوا او مجازا — یکون بعضهم مطیعین و بعضهم عصاة — و منهم من یکون لاحقا خاضعا، و منهم من یکون آبقا خادعا — ولایحتاج ذلك الی مزید ایضاح .

و من اهم النکات التی یجب بیانها ان من اتخذ شیئا الها أو ربا فقد عبده — وما عبده فقد اتخذه الها وربا — فالمعبود والرب أوالاله شیٔ واحد لا فرق بینهما، و سیاتی بیانه اخیرا —

ولا یصرف النظر عن مبنی مقالتی هذه وهو ان العبادة لها جزءان مرة

سوره جن ۱۱، ۱٤

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

يجتمعان ومرة يفترقان — احدهما التنسك والتاليه (تفعيل من أله) والثانى الاطاعة .

و تفصيله ان كثيرا من الناس اتخذوا بعض الاشياء المخلوقة الها وربا ولكنهم لا يطيعونه، لكونه غير اهل للاطاعة، فمن مثل تلك الآلهة عند الهندوس بعض الاشجار كالاثاب (التين الهندى (برگد) و نوع من الشجر يسمى (پيپل) فى الا ردوية- و بعض الحيوانات كالبقرة و القردة و الفيل والحية — و بعض البحار كبحر جنج (گنگا) و بعض الاصنام مثل جنيش (گنيش جى) والام السوداء (كالى مائى) و بعض الاعضاء التى يخجلنا ذكرها . و عند اهل الجاهلية من العرب بعض للاصنام كاللات و العزى — و بعض الاجرام الفلكية كالشمس و القمر و بعض الكواكب و عند المجوس بعض العناصر كالنار، و عند اليهود و النصارى بعض الانبياء كعزير و عيسى عليهما الصلوة والسلام، وهؤلاء المؤلهون يتحنثون و يعكفون على آلهتهم و يتنسكون فيسجدون لها و يحنون اعناقهم او يبسطون ايديهم اليهم للدعاء او يثنون ايديهم كالعاجز او ينذرون لهم او يذبحون باسمائهم تقريباً اليهم و يزعمون ان الهتهم هولاء يجيبونهم اذا دعوهم او يشفعون لهم عند الله او يقضون حاجاتهم و يحلون معضلاتهم و يدفعون عنهم آفاتهم و ينجونهم من ورطتهم كانهم يسمعون ويبصرون ولو كانوا غائبين عن انظارهم بعيدا من مكانهم فزعمهم واعتقادهم بقدرة آلهتهم هو اتخاذهم رباً والها، واظهار عقيدتهم هذه باى طريق — بانحناء او سجود او ذبح و نذر وغيره — هو عمل يقال له ''پرستش،، فى الفارسية و ''پوجا،، فى الاردوية و '' Worship ،، فى الانكليزية — ولا اجد له لفظا عربيا الا أن التاليه والتنسك والتحنث قريب من ذلك المعنى وان كان لا يستجمع كل ما فيه من سعة المعنى .

ان المؤلهين يعملون هذه الاعمال تأليها و تحنثا و تنسكا ولكنهم لا يطيعون تلك الالهة اصلا لان الطاعة لا تكون الا للامر والالهة المزعومة ليس لهم ان يأمروا اذ ليسوا للامر اهلا حتى انهم لا ينطقون الا اذا كان الاله المزعوم من الانسان — فالحاصل ان المشركين يسجدون لآلهتهم الباطلة و يدعونهم لكنهم لا يطيعونهم لكون هؤلاء الالهة غير اهل للطاعة .

و على ناحية اخرى نرى ان الخادم يطيع مخدومه ولكن لا يسجدله — ان التلميذ مطيع لمعلمه والولد لوالديه مطيع و تطيع المرأة زوجها والاسير مطيع لمولاه و على الرعية ان يطيع الراعى كما ان اطاعة الرسول واجبة على الامة، و كذا تجب طاعة اولى الامر على اهل الايمان المأمورين، وهولاء كلهم مطيعون لمطاعيهم ولكنهم لا يسجدون لمن يطيعونه — فبعض الاشياء مسجودله ولا يطاع و بعضها مطاع لا يسجد له فحيثما اجتمع هذان الشيئان — التنسك والطاعة — فهى العبادة بمعناها الحقيقى فى لسان القرآن — و هذه لله وحده لاشريك له فيها — فان كانت هذه لغير الله فهو الاشراك بالله لا يغفر الله لفاعله الا اذا تاب قبل موته واصلح .

الا ترون ان الله سبحانه قال فى كتابه المجيد : ''اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامرمنكم،، ولم يقل : اعبدوا الله واعبدوا الرسول واولى الامر منكم،، (نعوذ بالله من ذلك) — فظهر بهذا ان العبادة لله وحده ليس له فى ذلك شريك و لكن الاطاعة لغير الله ايضا كما هى لله — الا ان طاعة غير الله لا تكون الا تابعة لطاعة الله وان تصادمتا (اى خالفت طاعة غير الله طاعة الله) تركت طاعة غير الله لامحالة و هذا ما تقتضيه العبادة وهذا الذى اوضح النبى صلى الله

عليه وسلم بقوله : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق،، فمعنى ذلك الحديث ان للطاعة حدودا مختلفة و طاعة كل واحد من المخلوق لها حد معين من عند الله ومن تعداها عصى الخالق سبحانه .

و حاصل ما قلنا ان الطاعة والتنسك انما يجتمعان لله ولا يفترقان لديه — واما الطاعة فانها قد تكون للخالق تعالى وقد تكون للمخلوق بشرط ان تكون طاعة المخلوق فى حدودمعينة من عند الخالق بخلاف التاليه والتنسك والتحنث المحض فانه لله وحده ولغير الله شرك محض بلاادنى ريب، كما ان العبودية او العبدية او العبادة بمعناها الحقيقى الذى يشتمل التنسك والطاعة كليهما خاصة لله تعالى — فاذا استعملت هذه الكلمة اى العبادة ومشتقاتها لغير الله فهى مرة بمعنى الطاعة فقط والاخرى بمعنى التنسك والتاليه — فاما بمعنى الطاعة لغير الله فان كانت فى حدود معينة من عند الله فهى عين طاعة الله — واما بمعنى التنسك والتاليه ان كانت لغير الله فانها اشراك بالله تعالى كما بيناه — وان طاعة غير الله ان تعدت حدود الله فهى بحسب مقتضاها تكون إما شركا او كفرا او فسوقا او عصيانا، خفيفا او شديدا، خفيا او جليا، حراما او مكروها — و هذه المدارج تختلف باختلاف العقل والنية و غير هما من الاحوال والظروف .

فلننظر الآن مشتقات كلمة ''العبادة،، بمعانيها المختلفة الواردة فى القرآن الكريم — نذكرها مع الامثلة القرآنية :

فالمعنى الاول هو التاليه والتنسك مع الطاعة و هذا خاص لله سبحانه و من امثلته :

١ - اياك نعبدواياك نستعين (سورة ١، الآية ٥)

٢ - يقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره (سورة ٧، الآيات ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥)

و (سورة ١١، الآيات ٥٠، ٦١، ٨٤) و (سورة ١٦، الآية ٣٦) و (سورة ٢٣، الآيات ٢٣، ٣٢) و غير ذلك فى كثير من الآيات لا يسع هذا المقام احصاء كلها .

والمعنى الثانى الطاعة فقط ومن امثلته :

١ - ياأبت لا تعبد الشيطن (سورة ١٩، الآية ٤٤)

٢ - الم اعهد إليكم يابنى آدم الا تعبدوا الشيطن . . (سورة ٣٦، الآية ٦١)

و من المعلوم ان العبادة فى هاتين الآيتين بمعنى محض الاطاعة اذ ليس احد يتنسك او يتحنث للشيطان ولا احد يصلى او يصوم او يتصدق او يحج للشيطان او يدعوه عند المصائب او يضحى تقربا اليه او ينذر له نذرا او يصنع شيئا من المناسك التى تصنع لاله من الآلهة .

٣ - احشروا الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله . . . واقبل بعضهم على بعض يتساءلون .

(سورة ٣٧، الايات ٢٢ الى ٣٢)

ولا يخفى ان التساءول لا يقع الا بين الناس وازواج الناس اى رفقاؤهم لا يكونون الا الناس فمعنى عبادة الناس للناس فى هذه الآية الاخيرة ليس الاالطاعة .

والمعنى الثالث هو محض التنسك و التاليه خاليا عن الطاعة — و من امثلته الكثيرة :

١ - اذ قال لأبيه ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . (سورة ١٩، الآية ٤٢)

٢ - اذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التى انتم لها عاكفون، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين،... قال افتعبدون من دون الله مالا ينفعكم ولا يضركم، اف لكم ولما تعبدون من دون الله ... (سورة ٢١، الآيات ٥٢، ٥٣، ٦٦، ٦٧)

فالعبادة فى تلك الآيات ليس معناها الا التاليه والتنسك والتحنث لغير الله ولا معنى فيها للطاعة لكون هؤلاء الآلهة غير اهل للطاعة اذ لا يأمرون عابديهم بشئ يطاع وان العابدين انفسهم يعترفون بكون الهتهم (اى التماثيل) غير ناطقين فقالوا: لقد علمت ماهولاء ينطقون (سورة ٢١، الأية ٦٥) فما لا ينطق لا يأمر ومالا يأمر لا يطاع، فالعبادة هنا بمعنى التاليه والتنسك فقط بدون طاعة .

ولكلمة العبادة معنى رابع وهو كون الشئ عبدا كما ذكرنا قبل فى صدر المقالة والعبد على اقسام عديدة بمعان مختلفة :

الاول بمعنى الاسير قبل ان يعتق منا او فداء مطيعا كان او عاصيا او آبقا — وهو بازاء الحر، ومن امثلته فى القرآن :

١ - الحر بالحر والعبد بالعبد (سورة ٢، الاية ١٧٨)

٢ - وانكحو الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم (سورة ٢٤، الآية ٣٢)

٣ - ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو اعجبكم . (سورة ٢، الآية ٢٢١)

والثانى بمعنى المطيع المحرومن امثلته :

١ - . . . بل عباد مكرمون (سورة ٢١، الآية ٢٦)

٢ - انه من عبادنا المخلصين (سورة ١٢، الآية ٢٤)

والثالث بمعنى الانسان مطلقا مطيعا كان او غير مطيع و من امثلته :

١ - والله بصير بالعباد (سورة ٢، الآية ٢٠)

٢ - وما ربك بظلام للعبيد (سورة ٤١، الآية ٤٦)

٣ - . . . والنخل باسقات لها طلع نضيد. رزقا للعباد . . (سورة ٥٠، الآيات ١٠، ١١)

والرابع بمعنى الملائكة و مثاله :

١ - وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا (سورة ٤٣، الآية ١٩)

والخامس بمعنى الآلهة الباطلة سواء اكان من الاصنام أم من الناس ام كان من الجواهر اللطيفة كالملائكة والجن والارواح — و مثاله :

١ - ان الذين تدعون من دون الله عباد امثالكم — (سورة ٧، الآية ١٩٤)

فظهر بهذا البيان ان العبادة فى القرآن لها اربعة معان وهى :

١ - التنسك والتاليه

٢ - الاطاعة

٣ - كلاهما معا

٤ - كون الشئ عبدا

فالاول ان كان لغير الله فشرك محض بدون ادنى تاويل — والثانى ان كان فى غير معصية الله تابعا لحدوده فواجب — واما الثالث لله فقط، وهو فرض عين

و حاصل الحياة الانسانية وغاية بعثة الأنبياء، و غرض الحياة الوحيد، كما قال سبحانه :

وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون (سورة ٥١، الآية ٥٦)

والمعنى الرابع وهو كون الشيء عبدا متعلق بفحوى الثلاث الاول .

لقد ذكرنا فيما سبق اقسام العباد . و هناكم شيء آخر جدير بالذكر وهو ان الاشياء تعرف باضدادها .

فاعلم ان كل ماهو الاشراك بالله فهو ضد العبادة المقصودة و او ضحه القرآن وفسره باتخاذ شيء الها وربا — ان الانبياء اعلنوا مرارا فقالوا : ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره — (سورة ٧، الآية ٥٩) و معناه واضح بين، ان الله هوالاله وحده، والاله الوحيد هو الله الاحد، فالعبادة معناها ان يتخذ الله وحده الها وربا — وان اتخذ اى شيء من غير الله الها وربا فهو الاشراك بالله بلا ادنى ريب — وما كان من الشرك لا يكون عبادة الله ابدا . فما عده الله فى القرآن من الشرك بالله فاكبره ستة اشياء :

الاول : ان يدعو الانسان شيئاما من غير الله مستعينا به، كما نقول كل يوم فى كل ركعة من الصلوات الخمس و غيرها من السنن والنوافل : اياك نعبد و اياك نستعين . فالعبادة والاستعانة هنا على مستوى واحد نخص كل واحد منهما بالله سبحانه بالحصر التام .

سمعنا بعض اهل العلم يقولون : كيف يكون الاستعانة بغير الله شركا و يستعين بعضنا بعضا كل يوم — فاذا نادينا احدا — ولو غائبا —مستعينا به و قلنا مثلا : يافلان اغثنى — ''او يا فلان المدد،، فكيف يكون هذا شركا به سبحانه ؟

نعم انهم مع كونهم من اهل العلم لايفقهون ماهو الفرق بين الاستعانة والتعاون — فمعنى الاستعانة ان المستعين فى حاجة الى اعانة المستعان والمستعان لايحتاج الى عون المستعين — نحن نستعين الله وهو لا يستعين بنا — وامر الله معنا كشارع ذوسمر واحد (Oneway Traffic) بخلاف التعاون فانا نطلب الاعانة من رجل حينا لآخر كما يطلب الاعانة منا — فالتعاون على الخير واجب و على الشر حرام بقوله سبحانه : تعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان (سورة ١٨، الآية ٢) والله غنى عن العالمين لا يحتاج الى احد و كل شئ محتاج اليه .

و كذلك حال الاستعاذة — قال تعالى : واذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطن الرجيم (سورة ١٦، الآية ٩٨) و لذلك اذا قرأنا القرآن قلنا : اعوذ بالله الخ، قبل بسم الله . . الخ، و كذا النذور او السجود لغير الله و الذبح باسم غير الله، كل ذلك حرام خلاف عبادة الله تبارك اسمه .

والثانى : تحريم ما احل الله واستحلال ما حرم الله — هذا ايضا من الشرك لان التحليل والتحريم حق الله لا حق العباد — لاجل ذلك قال الله تعالى : لم تحرم ما احل الله لك ؟ الخ (سورة ٦٦، الآية ١) و معروف فى هذا الباب حديث عدى ابن حاتم الذى قال : سمعته صلى الله عليه وسلم يقول : اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله — قال انهم لم يكونوا يعبدون الله ولكنهم كانوا اذا احلوا لهم شيئا استحلوه واذا حرموا شيئا حرموه (رواه الترمذى) — فثبت ان من احل او حرم شيئا من عند نفسه من بعد ما جاءه من العلم، بان حكم الله خلاف ذلك، فقد اشرك بالله تعالى و من آمن به او صدقه، فقد اتخذه ربا و هذا خلاف عبادة

الله سبحانه .

والثالث : اتباع الهوى من دون امر الله — هو ايضاً من الشرك والحجة فى ذلك قول الله عزوجل : أفرايت من اتخذ الهه هواه (سورة ٤٥، الآية ٢٣) فمن اتخذ هو نفسه الها فقد اشرك و خالف عبادة الله .

والرابع : هو التسوية بين الخالق والمخلوق من اى جهة كانت سواء فى الذات أم فى الصفات فى القول أم فى الفعل، فمن اقام كلام البشر مقام كلام الله او جعله مثله او سوى بينهما فقد اشرك وان كانا لايتخالفان فضلا عما يتخالفان، ان الفرق بين كلام المخلوق و بين كلام الخالق كالفرق بينهما نفسيهما، وانهما لايتساويان من اية جهة من الجهات، فالتسوية بينهما اشراك بالله و على خلاف عبادة الله .

والخامس : كون القوم المسلمين فرقة فرقة فى دينهم الواحد من الاشراك بالله و حسبنا قول الله سبحانه . . . ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم و كانوا شيعا (سورة ٣٠، الاية ٣١، ٣٢) و قوله تبارك اسمه : ان الذين فرقوا دينهم و كانوا شيعا لست منهم فى شئ (سورة ٦، الاية ١٥٩)

السادس : دعوى ملكية اى شئ فان الله هو المالك، و كل شئ سواه هالك — و كما ان الرب والاله والمعبود والخالق والرزاق والمستجيب والمستعان والمستغاث والمذبوح له والمنذورله و غير ذلك ليس الا الله فكذلك لا مالك الا الله، والانسان امين او خازن او حارس او ناظر او عميد او و كيل او متول و غير ذلك، و ليس هو بمالك، و دليله كثير مثل قول الله عزوجل : ان الارض لله يورثها من يشاء . . .الخ (سورة ٧، الاية ١٢٨) وقوله تعالى : . . .ما يملكون من قطمير (سورة ٣٥، الآية ١٢)

و بمناسبة هذا المقام جدير بنا ان نعرف موقف الاسلام تجاه النظريتين المتداولتين و هما الرأسمالية والاشتراكية فالاولى تقول لكل ما فى يد الفرد انه ملك له والاخرى ترى ان كل شئ ملك الشعب ولا ملكية للفرد — اما الاسلام فلا يعترف بهذا ولاذاك او يرى الاسلام ان الله هو مالك كل شئ وحده و ليس الانسان الا امينا لما فى يده وله استخدامه واستعماله والانتفاع به بحسب تعليمات المالك .

فادعاء الملك من عند الانسان شرك لا يقبله توحيد الرب المالك وهو يناقض العبادة ايضا .

و هناك شئ يجب بيانه كى لا يسبب سوء الفهم وهو الفرق بين الحقيقة والمجاز — ربما جاءت كلمة واحدة فى القرآن مرة لله والاخرى لغير الله — فالاول حقيقة والثانى مجاز، وامثلته فى القرآن كثيرة — و نذكر هنا بعضها :

(١) ان الله رؤف رحيم (سورة ٢٤، الاية ٢٠) والرسول . . بالمؤمنين رؤف رحيم (سورة ٩، الآية ١٢٨) وقال : والذين معه . . . ''رحماء بينهم،، (سورة ٤٨، الاية ٢٩)

(٢) (الله تعالى) نعم المولى و نعم النصير — (سورة ٢٢، الآية ٧٨) وللادعياء . . . فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم (سورة ٣٣، الآية ٥)

(٣) الناس كلهم عباد الله . . . ''رزقا للعباد،، (سورة ٥٠، الآية ١١ وقد مر)

والناس بعضهم عباد للبعض : وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم

وامائكم (سورة ٢٤، الاية ٣٢ و قد مر)

(٤) مالك كل شئ من الاموال هو الله تعالى : وآتوهم من مال الله الذى آتاكم (سورة ٢٤، الآية ٣٣) والانسان كذلك يملك الاموال : كالذى ينفق ماله . . .الخ (سورة ٢، الآية ٢٦٤) مثل الذين ينفقون اموالهم (سورة ٢، الآية ٢٦١) ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل . . . الخ (سورة ٢، الاية ١٨٨) انتم لها مالكون (سورة ٣٦، الاية ٧١)

فالاول فى كل واحد من هذه الامثلة حقيقة والثانى مجاز — فمعنى ''عبادكم،، مثلا عباد الله الذين هم اليوم فى ايديكم كالاسرى و كذا معنى ''اموالكم،، اموال الله التى آتاكموها وجعلكم فيها أمناء متسخلفين واعطاكموها للانتفاع لا لادعاء الملكية . . وهلم جرا .